نظامنا الاجتماعي

(١٠) كيف تنال حريتنا

لقد سبقت كلمتنا في الوطنية واليوم نشير لأمتنا السبيل إلى نيل الحرية . بعد ان عرف ابناء الوطن ان الحرية تنال بالاعمال لا بالاقوال . عرفوا ذلك بعد أن أسرفوا على انفسهم في الجدل وأهملوا جانب العمل . وما كانت تلك التي يسمونها أعمالاً إلاّ كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءهُ لم يجدهُ شيئاً . وإذا كنا اتبعنا خطوات الامم التي استقلّت قبلنا بأمورها كنا إذن من الناجحين

ليست الحرية منحة تمنحها الامم القوية المستضعفين من الناس فما زال القوم يفتك قويّهم بضعيفهم كما تفتك الآساد بالغنم والحيتان بالبلم وما زال الحق مغلوباً على امره مالم تؤيدهُ القوّة . وإذا نظرنا الى موقفنا الحاضر الفينا أنفسنا عيالاً على الاجانب في ملابسنا وأثاثنا وفراشنا ورياشنا وعقاقيرنا وادواتنا وعُددنا . فكيف نستقل استقلالاً خارجياً ولما نستقل بداخليتنا . هذا لعمري في القياس عجيب

لم لدينا بعض المصنوعات والمنسوجات المصرية ولكنها لا تفي بحاجياتنا ولم تصادف منا معاضدة لتحسينها وترويجها وهي ثمرة جهود فردية في الاعم الاكثر ونحن حتى اليوم فاقدو روح التعاون والثقة المتبادلة على تظاهرنا بالاتحاد لاننا لمّا نؤلف الشركات المصرية حتى نقوم بالضروريات ولا أقل من ان نوجد شركة عظيمة للمنسوجات القطنية والصوفية وعندنا من الاموال المكدسة في المصارف الاجنبية ما يقوم بانشاء شركات لا يحول دون ايجادها سوى ضعف الثقة وفقدان التعاون

كيف نطلب الحرية من قوم يمنّون علينا بصنع ملابسنا في بلادهم كما قال غاندي زعيم الهند (إني لاستحي ان اطلب الاستقلال من قوم يمنّون علي بصنع ملابسي)

قد يقال إننا اذا أوجدنا المال لتأسيس الشركات فما نجد الاكفاءً من الرجال للقيام بالاعمال . ونحن نقول لهم إننا نستخدم في اول الامر الاخصائيين من الامم المشهورة بالصناعة كالامريكيين والالمانيين والسويديين ممّن ليست لهم مطامع استعمارية في مصر وهؤلاء الاجانب يلبثون في شركاتنا زمناً حتى نستعيضهم بأبنائنا الذين يكونون قد بعثوا الى الولايات المتحدة والمانيا وإيطاليا ثم حازوا الشهادات العالية في المصنوعات والمنسوجات ومعرفة ضبط الاعمال وادارتها وظلّوا في

شركاتنا بعد ذلك مساعدين لاولئك الاجانب اكثر من سنتين حتى اذا ما توطّدوا كراسيهم وامسكوا بأدواتهم قاموا بأعمالهم خير قيام كما فعلت اليابان اول نهضتها على عهد الميكادو الاسبق وكما فعل محمد على باشا فى مصانعه التى اوجدها فى مبدأ نهضة مصر الحديثة وقد اصبحت الآن اثراً بعد عين

ان ايجاد الشركات يفتح للعاطلين الذين يزدادون كل يوم باباً كبيراً للرزق ويمنحهم سعة من العيش فلا تتسرب اليهم الفوضى الاجتماعية التى تعبث براحة الامم وتعيث فى الارض فسادا

واعتقد ان نداء واحداً من زعيم الامة كاف فى تحقيق هذه الفكرة وايجاد شركة للمنسوجات على الاقل

وليس بواجب الاعتماد على الحكومة فى ارسال البعثات الصناعية الى الغرب اذا كانت الامة تشعر بانها قد رشدت بل يجب ان تكوّن لجنة من وجوه المصريين للاكتتاب بالاموال التى تسد حاجيات تلك البعثة ثم تدع تلك الاموال فى [مصرف مصر] لهذا الغرض وعندى ان هذه هى الوسيلة الوحيدة إلى ضمان مستقبل تلك البعثة لئلا تعبث بها أيدى العابثين

ولا يعزب عنا إحياء ما درس من مصانعنا على عهد محمد على باشا الكبير وتجديدها كى تكون كأحدث المصانع فى اوربا وأمريكا

ولا تزال المعادن والمناجم فى مصر والنوبة تحت أطباق الثرى لم تكشف عنها أيدى الكاشفين ولم يعثر عليها المنقبون وهى ثروة لنا وقوة عظيمة فى سبيل استقلالنا فلنعمل على ابرازها وإن استعنا بمن ليس لهم الآن فى مصر مطمع

كم مرّة سمعنا وقرأنا فى غضون الصحف والمجلات أن فى مصر والنوبة مناجم للذهب ومادة الصّحاف الصّينية وآبار البترول وغيرها فلم نعن باستخراجها والانتفاع بها

إننا فى حاجة شديدة إلى ايجاد جيش بري وأسطول بحري ومطاود جوّية نحفظ بها كرامتنا وندافع بها عن حريتنا فلم نعدّ من ذلك شيئاً سوى كتائب لا تزيد على ثمانية عشر الفاً

واذا قيست قوتنا الحربية فى عهد الامير محمد على باشا منذ مائة سنة بغيرها كانت أحسن منها الآن اضعافاً مضاعفة وكان نصيبنا من الحرية ان نستقل استقلالاً داخلياً فقط تحت سيادة الدولة العثمانية وكانت أقل قوة من انجلترا التى نحاول الآن الخلاص من يدها بألسنتنا وأقلامنا وقوة حقنا مع اعترافنا بضعفنا دون الاعتراف باستكانتنا

ولذلك يجب علينا ان نزيد في قوتنا البرية ونعمل على ايجاد قوة بحرية وهوائية وستنال حريتنا إذا عنيت الحكومة والأمة بكل أولئك فسختا بالمال بقدر سخاء الوطن بالرجال وارسلتا رسالات منا إلى المانيا وتركيا والولايات المتحدة واليابان فتتعلم ابناؤنا هناك فنون الحرب واعداد الذخائر وسياسة السفن الحربية والمطاود الجوية كما فعل اليابان والأتراك من قبلنا فاذا عجزنا عن ذلك كله فنحن عن نيل حريتنا أشد عجزاً ولا ينبغي التغرير بشبابنا حتى يلقى بنفسه إلى التهلكة بغير عدة ولا نحسبهُ والحالة هذه قد أعطى نصيباً من الشجاعة وإنما أعطى اقصى غاية في التهوّر

ومصاب الملك في ابنائه كمصاب الارض في الزرع النضر

سيقولون ان المقاومة السلبية تنيلنا الحرّية ونقول أجل إذا كنا قد اعددنا لها عدتها وأين هيه ؟ ! اليست ملابسنا وأدواتنا من المهد إلى اللحد من الغربيين ولاسيما الانجليز واذا نحن منعنا أموالنا عن أيدي التجار من الانجليز فما الفائدة التي عادت علينا نحن المصريين إذا وضعنا اموالنا في ايدي الالمانيين والفرنسيين والامريكيين بابتياعنا بضائعهم . على ان هذه الامم والانجليز في حركة تجارية دائبة وكثير من اموالنا يصل إلى الانجليز إن لم يكن بايدينا مباشرة فبوساطة تلك الايدي الفرنسية والالمانية والامريكية وهذه بدهية يعرفها من له إلمام بالحركة التجارية في العالم وكلنا يعلم ان التجارة الانجليزية تسير والهواء في الدنيا

على أن المقاطعة قد جربت في الهند فلم تفلح وكان نصيبها الخيبة والارتباك المالي في البلاد والعباد

وغير خاف أن جل الحركة الماليّة لحكومتنا وأمتنا في يد الانجليز فإذا ما أردنا مشاكستهم في متاجرهم شاكسونا في اموالنا وديوننا وشلّوا يد الأعمال أو ترجع إلى حالتنا الأولى

والرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحلّ الثاني

أقول هذه الاقوال ولاء لأمتي لا ولاء للانجليز فإني من الوطنيّين الذين نالهم شرف الاعتقال بسجن بنها في سبيل الحرية أحداً وسبعين يوماً وما تحولت قيد شعرة عن اشرف المبادىء ولا ونيت في خدمة بلادي . غير أني لأمتي من الناصحين وعلى الله قصد السبيل

وان أخوف ما أخاف على أمتي أن تسترسل في إطالة حبال المفاوضات وهي خليّة من القوة التي تعلي بها عقيرتها وتجعلها مهيبة الجانب مرعية الحرمة موفورة

الكرامة. وما فاز عصمت باشا في مؤتمر لوزان بقوة عارضته وحصافة جنانه وفصاحة لسانه وانما فاز بقوة أمته التركية التي كانت قد اعدت ما استطاعت من قوة في البر والبحر والهواء فابلت بلاء حسناً في ساحة الوغى فأجلت اليونان ومن والاهم من بلادها وفرقتهم شذر مذر ولا غرو إذا فاز بطل السلم في ميدان السلام كما فاز وهو بطل الحرب في ميدان الالتحام

ولا يعترضنا ما نسمعهُ من ان عصابة الامم في سعي متواصل لابطال الحروب وغل الايدي العاملة في إشعال جذاها وتدمير آلات الدمار فهذا حديث هراء ولا نجد دليلاً أدل على فساده من قوات كل امة من عصبة الامم واذا ارادت تحقيق هذه الفكرة السامية التي لها في قلوبنا المحل الارفع فلتبدأ بنفسها حتى تقتدي الامم الضعيفة بها

قالوا السلام فقلنا تلك عادتنا أين السلام وأركان السلام دمُ

وقد علمنا أن الأموال التي اقترضتها الحكومة المصرية من الاجانب في عهد المرحوم اسماعيل باشا قد فتحت سبيلاً واسعة للتدخل في شئوننا ومهدت خير طريق للاحتلال قبل ان تخلق الحوادث العرابية وأن الارتباك والتعقيد الذي وجد في مصر إبّان عهد المرحوم الخديو توفيق باشا كان نتيجة لازمة للارتباك المالي لسبب تلك الديون الفادحة وقد فطن لها المرحوم اسماعيل باشا فانبأ بها وليّ عهده الخديو الأسبق ساعة الوداع إذ قال ما معناه (إني اودعك قبل أن اغادر مصر وأنا عليم بما ستجده هنا من الارتباك والتعقيد وما يصادفك من الصعوبات ولكني أكلها إلى حزمك وعزمك.)

فلنعمل على تخفيف وطأة تلك الديون اذا ابقتنا منها ما نجدهُ في الأسواق المالية ما استطعنا الى ذلك سبيلاً فنجني فوائدها الكثيرة ونرفع عنا ثقل الدّين

فاذا ما دأبنا في هذه الخطة المثلى فقد رفعنا شأن مصر والمصريين وكانت ديون الحكومة في ايدي أبنائها وذلك الأمر احب اليها والينا من أن تكون في ايدي الاجانب منها وقد جرّت علينا ديوننا للغربيين كوارث لا طاقة لنا بها

ولنا في انجلترا أسوة حسنة فان جلّ ديون حكومتها في أيدي ابنائها الانجليز رغم تكاثرها

وقد يقال ان الدول العظمى متداينة وما ذلك بضائرها ولكننا نقول إن الديون ضارّة بأمثالنا نحن المصريين والأدلة كثيرة لا تخفى على الناس

ولا تثريب على المرحوم اسماعيل باشا في هذه الديون فانهُ انفق اكثرها في سبل الاصلاح الداخلي بمصر كي يجعلها في نظامها كقطعة من اوروبا كما قال الا انهُ اقترض مالاً كثيراً في زمن يسير فكان الاصلاح على عجل وكان ماكان مما نحن فيهِ

وفي استطاعة الحكومة من هذا العهد الى الآن أن تقوم بأداء النصيب الاوفر من تلك الديون اذا شلت يدها عن الاصلاح ولكنها آثرت مصلحة الوطن على مصلحة نفسها وبسطت يدها على ابنائها ليعيشوا عيشة راضية تتفق وحضارة هذا العصر ولعلّ فوائد كل سهم من الدين الموحد والممتاز والمضمون تغري المالكين من المصريين باقتناء الكثير منها والله الميسر

إن حريتنا لا تكون إلاّ بعد ان نعمل لتقوية أمتنا شيئاً فشيئاً في جوّ هادىء ترفرف فوقه راية السلام والوئام ولا ريب أن هذا العمل يستغرق اعواماً طويلة ولكنها أقصر من الأعوام التي نضيعها في الاحتجاجات والمطالبات والتضحيات

ولا نريد أن نعتدي على غيرنا كما لا نريد ان يعتدي علينا غيرنا . لأننا نعرف حقوق غيرنا عرفاننا حقوق أنفسنا وإذا كانت الحرية حقاً لكل أمة فسوف تنال مصر هذا الحق المقدس إن عملت على منالهِ

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

واعتقد أن سلامة وادي النيل تكون اذا احتفظ ابناؤه بالسلم في ميادين الأعمال ردحاً من الزمن حتى تشتد سواعدهم وتكثر عُدَدهم فتكون مطالبهم مقبولة مجابة كما فعل الامريكيون من قبل والكاليون من بعد ينبئنا بذلك التاريخ إذ قديمهُ منوال وحاضره مثال ومستقبله بيد الكبير المتعال

وما ضاع حق لم يتم عنه أهلهُ وما نالهُ في العالمين مقصّر

سيقول فريق من الناس ان عقبات تقف في سبيل تحقيق هذا المنهج لا تخفى على ذوي البصائر ونقول لهم إن اتحادنا ومثابرتنا وثباتنا وصبرنا كل اولئك يذلل تلك العقبات وما نلناه من الاستقلال الحالي يساعدنا على أن نكون احراراً في بلادنا فنعمل كما تعمل الامم الحيّة حيّ على خير العمل

قال باكون (لا يقدر العقل ان يعمل ولا اليدان أن تفعلا اذا ترك كلٌّ وحده ولا يتم العمل إلاّ بادوات ومعونات يحتاج اليها العقل كما تحتاج اليها اليد)

وينبغي الاّ نركن الى المصادفة لنيل حريتنا ففعل المصادفة نادر والحرية التي تنال بالمصادفة أو بوساطة امة اخرى تكون أوهى من بيت العنكبوت لا يلبث ان

يتفوض بيد عاتية او ريح عابثة وأقرب دليل لدينا حرية اخواننا اهل الشام في عهد الملك فيصل وحرية اهل الحجاز في عهد الملك الحسين بن علي فما سلمت على هذين القطرين حتى ودعتهما كأن لم تكن شيئاً مذكوراً

هذه آرائي أدلي بها الى أمتي والزمان كفيل بتحقيقها فإن خالفتها اليوم فستضطر الى اتباعها غداً

ولربما طعن الفتى اقرانه بالرأي قبل تطاعن الاقران

وصفوة القول أننا اذا أردنا حرية تامة لوادي النيل حققنا هذا البرنامج على مرّ الزمان

(١) ان ننشيء شركات صناعية بأموال الأمة وتختار لأدارتها وسياستها الآن بعض الأجانب المخلصين ممن ليست لهم مطامع عصر كالامريكيين والنمسويين والسويسريين

(٢) أن نبعث بعثات مصرية الى الغرب ليحصلوا على شهادات عليا في الصناعات التي نحيا بها شركاتنا التي تكون قد أنشأناها حتى إذا عادوا عاونوا أولئك الاجانب على اعمالهم سنة أو سنتين ثم حلوا محلهم كما فعلت اليابان والولايات المتحدة من قبل

(٣) أن تعنى الحكومة باستخراج معادن مصر والسودان للانتفاع بها كمادّة الصّحاف الصّينيّة والذّهب من مناجمه والبترول من آباره الى غير أولئك

(٤) ان نبعث بعثات الى امريكا وأوروبا لتعلم الفنون الحربية وسياسة السفن البحرية والمطاوعة الهوائية التي تنشأ لمصر للدفاع عن كرامتها

(٥) أن تكوّن جيشاً من أبنائنا على احدث الانظمة العصرية يتولى قيادته ضباط مصريون قد تعلموا في مصر وفي امريكا وأوربا

(٦) ان نبتاع ما نجده في الاسواق المالية من أسهم ديون حكومتنا قدر الاستطاعة وفوائدها العظيمة تغري كبار المالين من المصريين بالتهافت عليها ونحن أولى بها من الاجانب

(٧) أن نرقي شأن التربية والمعارف حتى تكوّن رجالاً كثيرين يعرفون الواجب عليهم حيال وطنهم العزيز وعرشهم المفدى ومليكهم المحبوب

(٨) أن نُخلد إلى السكينة والسلام مع العمل في داخل بلادنا لرقينا حتى يتاح لنا وقت المطالبة بحقوقنا بعد اعداد عدتنا

وهذه سبيل من يريد الحياة حرّة في ذلك الزمن المزن والسلام؟

عبد الرحيم محمود

المدرس بمدرسة المعلمين الثانوية